المسألة الثالثة: في النبوات

الفصل الأول

في مراتب موجودات العالم

واتصال بعضها من بعض وببعض

إنه وإن كان قصدنا الأول الكلام على النبوات فإنا لا نصل إلى تحقيقه إلا بعد ذكر مراتب الموجودات والحكمة السارية في جميعها التي نشأت من قبل الواحد الحق فأعطت كل مرتبة قسطها ووفَّتها قدر استحقاقها بالميزان العدل، وتبتدئ بأول هذه المراتب وننتهي بالتصفح إلى آخرها، فإذا أخبرنا بالمواضع التي هي غرضنا لا محالة وعرفناها وتحققنا مرتبتها ونسبناها إلى ما هو دونها وإلى ما هو فوقها وليكون علمنا بها أتقن وأوضح إذ كنا مضطرين في غرضنا إلى ذكر الموجودات، فينبغي أن نفصلها تفصيلاً نقف منه على مقصودنا لنتوجه إليه بالطلب.

فنقول: أنا اتصال أجرام الموجودات بعضها ببعض وأن الكل واحد إذا أخذ مركز الأرض إلى أن ينتهي إلى السطح الأقصى من الفلك التاسع وأنه حيوان واحد وأجزاء مختلفة فهو أمر قد فرغ منه الحكيم واستقصاه.

فأما تقسيم أجزاء هذا الكل؛ فإنه بالقسمة الأولى ينقسم إلى قسمين:

إلى عالم الكون والفساد وهو عالمنا.

وإلى العالم الذي لا كون فيه ولا فساد وهو السماء والأفلاك بما فيها من الكواكب المتحيزة منها وتركيبها وهيئتها وأنه لا خلل فيه ولا فرجة هناك فهو أيضًا مشروح في كتب الهيئة مبرهن عليه براهين لا يعترضها شك ولا يمكن فيها قدح.

وأما اتصال الأجرام الذي في عالمنا هذا وهو مشاهد لا ما يظنه قوم من وجود الخلاء، أي: البعد في غير حامل ، وهذا أيضًا مشروح في كتاب السماع.

فأما اتصال الموجودات التي نقول أن الحكمة سارية فيها حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها حتى اتصل آخر كل نوع بأول

نوع آخر فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزًا كثيرًا على تأليف صحيح وحتى جاء من الجميع عقد واحد فهو الذي ننبه عليه بالدلالة بمعونة الله.

فنقول: إن أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأول أثر حركة النفس في النبات وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء.

وللنبات في قبول هذا الأثر غرض كثير ومراتب مختلفة لا تحصى إلا أنا نقسمه إلى ثلاث مراتب وهي الأولى والوسطى والآخرة؛ ليكون الكلام عليه أظهر وأن لكل مرتبة من هذه المراتب غرض كثير وبين المرتبة الأولى والوسطى مراتب كثيرة لأننا بهذا الترتيب يمكننا أن نشرح ما قصدنا إليه من إظهار هذا المعنى اللطيف.

فنقول: إن مرتبة النبات في قبول هذا الأثر الشريف هو لما نجم من الأرض ولم يحتج إلى بذر ولم يحفظ نوعه ببذر كأنواع الحشائش، وذلك أنه في أفق الجماد، والفرق بينهما هو هذا القدر اليسير من الحركة الضعيفة في قبول أثر النفس ولا يزال هذا الأثر يقوى في نبات آخر يليه في الشرف إلى أن يصير له من القوة في الحركة إلى أن يتفرغ وينبسط ويتشعب ويحفظ نوعه بالبذر ، ويظهر فيه من أثر الحكمة أكثر مما يظهر في الأول ولا يزال هذا المعنى يزداد في شيء بعد شيء ظهورًا إلى أن يصير إلى الشجر الذي له ساق وورق وثمر يحفظ به نوعه وغراس يصونه بها بحسب حاجته إليها، وهذا هو الوسط من المنازل الثلاثة إلا أن أول هذه المرتبة متصل بما قبله وهو في أفقه وهو ما كان من الشجر على الجبال وفي البراري المنقطعة وفي الغياض وجزائر البحار لا تحتاج إلى غرس بل ينبت لذاته وإن كان يحفظ نوعه بالبزر وهو ثقيل الحركة بطيء النشوءِ ثم يتدرج من هذه المرتبة ويقوى هذا الأثر فيه ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهي إلى الأشجار الكريمة التي تحتاج إلى عناية من استطابة التربة واستعذاب الماء والهواء لاعتدال مزاجها وإلى صيانة ثمرتها التي تحفظ بها نوعها كالزيتون والرمان والسفرجل والتفاح والتين وأشباهها.

ويتدرج أيضًا في قبول هذا الأثر من ظهور الشرف إلى أن ينتهي إلى رتبة الكرم والنخل.

فإذا انتهى إلى ذلك صار في الأفق الأعلى من النبات وصار بحيث إن زاد قبوله لهذا الأثر لم يبق له صورة النبات وقبل حينئذ صورة الحيوان، وذلك أن النخل قد بلغ من شرفه عل النبات إلى أن حصل فيه نسبة قوية من الحيوان ومشابهة كثيرة منه.

أولها أن الذكر منها متميز عن الأنثى وأنه يحتاج إلى التلقيح ليتم حمله وهو كالسِفَاد[1] في الحيوان وله مع ذلك مبدأ آخر غير عروقه، وأصله: أعني الجمار الذي هو كالدماغ من الحيوان فإن عرضت له آفة تلف.

وليس كذلك سائر الأشجار لأن لتلك مبدًأ واحدًا وهو الأصل الثابت في الأرض فما دام ذلك ثابتًا على حاله لم تعرض له آفة فهو باقي الحياة ، وبزر النخل الذي يسمى طلعًا وبه يلقح النخلة شبيه الرائحة ببزر الحيوان ، وقد أحصيت للنخل كثرة تشابه للحيوان ليس هذا موضع إحصائها وإلى هذا المعنى يتوجه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عمتكم النخلة؛ فإنها خُلقت من بقية طينة آدم عليه السلام"[2].

فقد تبين بلوغ غاية الموضوع للنبات أن يبلغه في أفق الحيوان، وهذه الرتبة الآخرة من النبات وإن كانت في شرفه فإنها أول أفق الحيوان وهو أدون مرتبة وأخسها، وذلك

---

(١) سِفَادُ الْحَيَوانِ : نَزْوُ الذَّكَرِ عَلَى الأُنْثَى ، الرُّكُوبُ عَلَيْهَا .

(٢) رواه الهيثمي في (مجمع الزوائد/٥/٣٩) وقال: رواه أبو يعلى وفيه مسرور بن سعيد وهو ضعيف، وفي مسند أبي يعلى ذكر سنده هكذا: حدثنا شيبان حدثنا مسرور بن سعيد التميمي حدثنا عبد الرحمن الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي بن أبي طالب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي تذكرة الموضوعات قال عنه: في سنده ضعف وانقطاع وفي كشف الخفاء قال: رواه أبو نعيم والرامهرمزي في الأمثال عن علي مرفوعاً، وأخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس لكن بلفظ (نزلت) بدل (ولدت)، وبلفظ: (فأنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس من الشجر يلقح غيرها)، وأخرجه عثمان الدارمي بلفظ: (أطعموا أنفسكم الرطب فأن لم يكن رطب فالتمر، وهي الشجرة التي نزلت مريم ابنة عمران تحتها) وفي سنده ضعف وانقطاع، وفي خبر (من كان طعامها في نفاسها تمر جاء ولدها حليماً)، ورواه في الإصابة بلفظ أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطينة التي خلق منها آدم قال في سنده ضعف وانقطاع، انتهى. وقال في الدرر رواه أبو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس أيضاً بلفظ: (أكرموا النخلة فإنها خلقت من الطينة التي خلق منه آدم)، وفي لفظ لهما، عن ابن عباس – أيضاً – بلفظ: (أكرموا النخلة فإنها خلق من الطين الذي خلق منه آدم).

أول ما يرقى النبات من منزلته الأخيرة ويتميز به من مراتبه الأُول هو أن ينقلع من الأرض ولا يحتاج إلى إثبات العروق فيها بما يحصل له من التصرف بالحركة الاختيارية وهذه الرتبة الأولى من الحيوانية ضعيفة لضعف أثر الحس فيها، وإنما تظهر بجهة واحدة أعني: حسًا واحدًا، وهو الحس العام الذي يقال له حس اللمس وذلك كالصدف وأنواع الحلزون الذي يوجد في شاطئ الأنهار وسواحل البحار وإنما تعرف حيوانيته ويعلم أنه ذو حس واحد من أجل أنه إذا استلب من موضعه بسرعة وعلى عجلة وخفة فارق موضعه واستجاب للأخذ وإن أُخذ بإبطاء وعلى ترتيب لزم موضعه وتمسك به.

وذلك لأنه يحس أن لامسًا له يريد أخذه فيصعب حينئذ جذبه وتناوله من مكانه لتشبثه به وهو يضعف عن التنقل وإن كان قد انقلع من الأرض وصارت له حياةٌ ما لأنه في الأفق القريب من النبات وفيه مناسبة منه.

ثم ينتقل عن هذه الرتبة إلى أن ينتقل ويتحرك ويقوى فيه قوة الحس كالدود وكثير من الفراش والدبيب ، ثم يرتقي عن هذه المرتبة أيضًا ويقوى أثر النفس إلى أن يصير منه الحيوان الذي له أربعة حواس كالخلد وما أشبهه، ثم يرتقي من ذلك إلى أن يصير له من حس البصر ضعيف كالنمل والنحل والحيوان الذي عيونه تشبه الخرز وليس لها أجفان ولا ما يستر أحداقها.

ثم يقوى ذلك إلى أن يصير منه الحيوان الكامل في الحواس الخمس، وهي مع ذلك متفاوتة المراتب فمنها البليدة الجافية الحواس، ومنها الذكية اللطيفة الحواس التي تستجيب للتأديب وتقبل الأمر والنهي وتستعد لقبول اثر النطق والتمييز كالفرس من البهائم والبازي من الطير.

ثم يقرب من آخر مرتبة البهائم ويصير في أفقه الأعلى وفي مرتبة الإنسان وهذه المرتبة وإن كانت شريفة فهي خسيسة دنية بعيدة من مرتبة الإنسان وهي مراتب القرود وأشباهها من الحيوان التي قاربت الإنسان في خلقة الإنسانية وليس بينها وبينه إلا اليسير الذي إن تجاوزه صار إنسانًا.

فإذا بلغه انتصبت قامته ويظهر فيه من قوة تمييز الشيء اليسير فضل تمييز واهتداء إلى المعارف ويقوى فيه أثر النفس ويقبل التأديب بالفهم والتمييز.

وهذا الأثر وإن كان شريفًا بالإضافة إلى ما دونه من رتب البهائم فهو خسيس دنيءٌ جدًا بالإضافة إلى الإنسان الكامل النطق.

وهذه المرتبة القريبة من مرتبة الإنسان هي في أفق البهيمية وهي في أقصى المعمورة من الأرض وفي أطرافها من الشمال والجنوب كأواخر الزنج وغيرهم، فإن هؤلاء ليس بينهم وبين الرتبة الآخرة من البهائم التي ذكرناها كثير فرق بالتمييز إلى كثير شيء من المنافع لهم.

وليس تؤثر عنهم حكمة ولا يقبلونها أيضًا من الأمم التي تجاورهم فلذلك ساءَت أحوالهم وقل نفعهم وحصلوا غير مغبوطين ولا مستصلحين لغير العبودية والاستخدام فيما تستخدم فيه البهيمة.

ثم لا يزال أثر النطق يزيد إلى أن يصير في وسط المعمورة في الإقليم الثالث والرابع والخامس فحينئذ يكمل هذا الأثر ويصير بحيث تراه من الذكاء والفهم والتيقظ للأمور والكيس في الصناعات واستخراج غوامض العلوم والاتساع في المعارف.

ثم يقع التفاوت في هذه الرتبة منها إلى حيث يومئ إلى الواحد بعد في سرعة الهاجس وقوته واستقامة النظر وصحة الفكر وجودة الحكم على الأمور الكائنة والإخبار بالأحوال المستقبلة حتى يقال: فلان ألمعيّ ، وفلان محدث، وكأنما ينظر إلى الغيب من وراءِ ستر رقيق.

فإذا بلغ الإنسان هذه الرتبة فقد قارب البلوغ إلى أفقه الذي يتصل به إلى أفق الملائكة ، أعني: الوجود الذي هو أعلى من الوجود الإنساني ولم يبق بينه وبين مرتبة عليين إلا درجات يسيرة يدركها.

وإذ رتبنا قوى العالم الصغير وشرحنا اتصال قواه بعضها ببعض وكيف ترتقي قوة الحواس منه إلى ما هو أعلى منها ومنها إلى ما بعدها حتى يجاور الملَك ويناسبه ويستمد منه، فهناك يتبين غاية أفق الإنسانية ونهاية شرفه وكيفية مرتبته واتصال الروح المسمى في القرآن الروح القدس، فيطلع الناظر في هذه المراتب على صور الموجود ويفهمه ويعرف شرف الرسالة وعلو درجة النبوة إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

في أن الإنسان عالم صغير وقواه متصلة ذلك الاتصال

أما إن الإنسان عالم صغير وقواه متصلة[١] وفيه نظائر جميع ما في العالم الكبير من الأُسْتُقُصَّات الأربع ومن المعمورة والخراب من البحر والبر والجبال ونظائر من الجماد

---

(١) اعلم أن قول الحكماء إن العالم إنسان كبير وقولهم إن الإنسان عالم صغير يجب أن نشرح معناه لتقف على حقيقته : معنى ذلك أن العالم له جسم ونفس يعنون به الفلك المحيط وما يحوي من سائر الموجودات من الجواهر والأعراض وأن حكم جسمه بجميع أجزائه البسيطة والمركبة والمولدة يجري مجرى جسم إنسان واحد أو حيوان واحد بجميع أعضاء بدنه المختلفة الصور المفننة الأشكال وأن حكم نفسه بجميع قواها السارية في أجزاء جسمه المحركة المدبرة لأجناس الموجودات وأنواعها وأشخاصها كحكم نفس إنسان واحد أو حيوان واحد السارية في جميع أعضاء بدنه ومفاصل جسده المحركة المدبرة لعضو واحد وحاسة حاسة من بدنه .

وذلك قول الله تعالى : " وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " وإذا قلنا نحن في رسائلنا : الجسم الكلي فإنما نعني به جسم العالم بأسره . وإذا قلنا النفس الكلية فإنما نعني بها نفس العالم بأسره . وإذا قلنا العقل الكلي فإنما نعني به القوة الإلهية المؤيدة للنفس الكلية السارية في جميع الأجسام المتحركة المدبرة لها المظهرة بها ومنها أفعالها وآثارها . وإذا قلنا الأجسام البسيطة فإنما نعني بها الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض . وإذا قلنا الأنفس البسيطة فإنما نعني بها قوى النفس الكلية المحركة المدبرة لهذه الأجسام السارية فيها وهذه القوى نسميها الملائكة الروحانيين في رسائلنا . وإذا قلنا الأجسام المولدة فإنما نعني بها أنواع الحيوان والنبات والمعادن . وإذا قلنا الأنفس الحيوانية والنباتية

والمعدنية فإنما نعني بها قوى النفس البسيطة المحركة المدبرة لهذه الأجسام المولدة السارية فيها المظهرة بها ومنها أفعالها . فإذا قلنا الأجسام الجزئية فإنما نعني بها أشخاص الحيوانات والنبات والمعادن وغيرها من المصنوعات على أيدي البشر وغيرهم من الحيوان . وإذا قلنا الأنفس الجزئية المتحركة فإنما نعني بها قوى النفوس الحيوانية والنباتية والمعدنية السارية في الأجسام الجزئية المحركة المدبرة لها المظهرة بها ومنها أفعالها واحداً واحداً من الأشخاص الموجودة تحت فلك القمر . فقد بان بهذا أن مجرى حكم العالم ومجاري أموره بجميع الأجسام الموجودة فيه مع اختلاف صورها وافتنان أشكالها وتغاير أعراضها يجري مجرى جسم الإنسان الواحد من الناس أو الحيوان الواحد بجميع أجزائه المختلفة الصورة ومفاصله المفننة الأشكال وهيئته المتغايرة الأعراض وأن حكم سريان قوى نفس العالم في جميع أجزاء جسمه كحكم سريان قوى نفس إنسان واحد في جميع أجزاء بدنه ومفاصل جسده . انظر: رسائل إخوان الصفا ص٢١٢.

والنبات والحيوان وكأنه مختصر من الجميع ومؤَلف من الكل فبعضه ظاهر بيّن وبعضه خفي غامض.

ونحن نورد من ذلك جملاً بقدر ما يطلع به المتأَمل وجه الحكمة ولا يستنقصه لمبادرتنا إلى الغرض المقصود بهذه الأبواب من شرح أمر النبوات وفي استقصاء باب واحد من أبواب هذا الكتاب يحتاج إلى أضعاف حجم هذا الكتاب وليس شريطتنا ولا زماننا متسع له.

فأقول: إنه لما كان الإنسان مركبًا لم يجز أن يوجد فيه العناصر بسيطة لأنها لو وجدت فيه لحللته سريعًا، أعني: الجزءَ من النار البسيطة بعينه إذا جاور المركب منه ومن غيره حلَّه وردَّه بسيطًا ، وكذلك حال الباقيات وإن كانت النار أظهر فعلاً فلما لم يكن ذلك وجب أن توجد فيه مركبة.

وإن نظرنا في ذلك وجدنا في الإنسان ما يجري مجرى النار في الحر واليبس ومجرى الأرض في البرد واليبس ومجرى الهواء في الحرارة والرطوبة ومجرى الماء في البرودة والرطوبة.

أما ما يجري مجرى النار منه فالمرارة المعلقة بالكبد لأنها حارة يابسة وهي مستقر هذا الخلق ومفيده من جميع البدن .

وأما ما يجري مجرى الأرض فالطحال لأنه بارد يابس وهذا أيضًا مستقر هذا النوع من الأخلاط ومفيضه من البدن.

وأما ما يجري مجرى الهواء فالدم الذي في العروق لأنه حار ورطب.

وأما ما يجري الماء فالبلغم ولم يفرد له وعاء يخصه كما علم في الأركان الثلاثة من أجل أنه مستعد لينهضم، فإذا انهضم صار غذاء تامًا ولم يكن له فضلة وليس كذلك الآخر.

وبنوع آخر من الاعتبار: القلب معدن الحرارة واليبس، وهو بطبع النار والدم معدن للحرارة والرطوبة، وهو بطبع الهواء والدماغ معدن البرودة والرطوبة، وهو بطبع الماء والعظام معدن البرودة واليبوسة وهي بطبع الأرض. وكأن هذه الأربعة أصول أوائل لتلك الأربعة وتلك فروعها.

فأما مثال آخر مما في العالم الكبير فإن الرطوبات التي تخرج من العين والفم يجري مجرى العيون والأنهار في الأرض، وبخار البدن يجري مجرى السحاب، والعرق يجري مجرى المطر.

فأما العروق فكبارها تجري مجرى الأدوية، وصغارها تجري مجرى الأنهار والجداول.

وأما الشعور كلها فهي جارية مجرى النبات والحيوان الذي يتولد في ظاهر البدن يجري مجرى حيوان البر.

والذي يتولد في باطنه يجري مجرى حيوان البحر، ونصف البدن المقدم الذي فيه الوجه يجري مجرى العامر من الأرض الذي فيه البلدان، ونصفه الآخر الذي فيه القفار يجري مجرى الخراب من الأرض الذي فيه البراري.

فأما العين فتجري مجرى الكواكب بناظرها وشعاعها، وطبقات العين تجري مجرى أفلاك الكواكب.

ويحدث في البدن جميع ما يحدث في العالم من الرياح والزلازل والطوفان والرجفة ، أعني: العطاس والزكام والحميات وغيرها من عوارض البدن.

ثم إن في البدن ما يتحرك من ذاته وبالطبع ولا يسكن بتة، ومنه ما هو ساكن بذاته بالطبع، ومنه ما يتحرك بالقهر وبالعرض.

فأما ما يختص من البدن بالبروج الاثنى عشر والكواكب السبعة بما فيه من طبائعها أو مثلثتها فقد ذكره المنجمون واستقصوه.

وأما شكل البدن كله وما كان يجب من استدارته فيشبه العالم الكبير ويساويه في شرف هذا الشكل وفضله على جميع الأشكال، فكذلك هو وإياه قصد بالقصد الأول.

وذلك أن المقصود من جميع بدن الإنسان هو الرأس الذي خلق مستديرًا وهو تام كامل فيه الحواس الخمس، وفيه تظهر آثار الإنسانية من التمييز والفهم والذكر والفكر ، وبالجملة جميع قوى النفس إلا أنه لو أفرد خلقه ولم يوصل بسائر أجزاءِ البدن لما تمت حياته مدة طويلة ولا عرضت له الآفات الكثيرة في الزمن اليسير وذلك لحاجته إلى الانتقال والسعي وتناول الحاجات ودفع الأذيات وليس يتم له ذلك إلا بالحركة

وحركة المستدير نحو حاجاته تكون بالتدحرج ، وفيه من التعرض للآفات ما لا خفاء به وهو مع ذلك يحتاج إلى حرارة تحفظ عليه اعتدالاً خاصًا ومزاجًا محفوظًا وتلك الحرارة لطيفة جدًا.

وكان ينبغي أن تكون في الوسط كالمركز لتنتشر إلى أطراف الكرة بالسواءِ وتحفظ عليه مزاجه وجوهر الدماغ بارد رطب لا يصلح لذلك، فلو جعلت تلك الحرارة اللطيفة في وسطه لأطفأها سريعًا وتلف الإنسان.

وأيضًا فإن الحرارة إذا جاوزت الرطوبة أحدثت البخارات الكثيرة والبخارات إذا لم تجد منافذ إلى الهواء عادت إلى الحرارة فأطفأَتها للوقت(١).

فوجب من هذه الأشياء وغيرها مما يطول ذكره أن تبعد تلك الحرارة ولما أبعدت احتيج أن يوصل بينها وبين جوهر الدماغ بمجاري ومنافذ تجري مجرى القول وهو الشريانات التي بين القلب وبينه(٢).

ولما بعد ذلك احتيج إلى زيادة في الحرارة وقوتها إذ كانت تصل إلى هناك في مسافة طويلة وقد نقص بعض سورتها فجعل في القلب حرارة أزيد ليصل إلى الدماغ منها قدر الحاجة والكفاية لحفظ مزاجه.

---

(١) خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورةٍ وكرّمه عن بقية المخلوقات، وأودع فيه من العجائب ما لا يمكن للعقل أن يتصوره ولا يمكن لغيره عز وجل أن يوجِد هذه الأشياء في الجسم، وقد أمر الله تعالى الإنسان أن يتفكّر في خلقه وما أبدعه في جسمه ليستطيع العيش بشكلٍ متناغمٍ مع الطبيعة المحيطة به، ولو تفكّر الإنسان بخلقه لوجد إبداع الخالق، لذلك عليه شكر الله تعالى باستمرار على هذه النعم واستخدامها دائماً في طاعته عز وجل.

(٢) يحتوي رأس الإنسان على ما يقارِب ٣٠٠ ألف شعرةٍ، وكل شعرةٍ تحتوي على شريانٍ لتوصيل الدم المحمّل بالغذاء والأكسجين لهذه الشعرة، كما يحتوي على وريدٍ لينقل الفضلات وثاني أكسيد الكربون، وتحتوي على عصبٍ، وعضلةٍ، وغدةٍ دهنيةٍ، وغدةٍ صبغيةٍ لإنتاج المادة المسؤولة عن إعطاء الألوان المختلفة للشعرة، ولكن لا تحتوي هذه الشعرة على عصبٍ حسي، وهذا من عظيم قدرة الله عز وجل ورحمته بالإنسان؛ فالإنسان يتخلّص من الكثير من الشعر الذي يسقط من رأسه بشكلٍ طبيعي أو يقصّه عند الحلاق، فلو كان هناك عصبٌ حسي لتألم الإنسان كلّما سقطت شعرةٌ من رأسه وربما احتاج إلى العمليات الجراحية شهرياً لقص شعره.

ولما زيدت هذه الحرارة احتدّت فحصل منها مما يجاورها من جوهر القلب بخار دخاني واحتاج إلى نافخ ينفخ عنها أبدًا بالمنفخ البخاري الدخاني ويجلب إليها الخواء الموافق لها الذي يبقى فيه فلذلك خلقت له الرئة آلة للتنفس لتروح الحرارة وتخدمها في أسباب البقاء.

ولما احتاج إلى الغذاء الموافق لرد العوض عما تحلل منه بالحرارة خلقت له آلة الغذاء وتوابعها وما تخدمه في جميع ذلك الرجلين للسعي إلى المؤثر والهرب من المكروه والتدبر لتناول المنافع ودفع المضار وجميع ما بُيّن في كتاب منافع الأعضاءِ من جليلها ودقيقها ظاهرها وباطنها التي دلت على حكمة بالغة وقدرة تامة وتدبير غامض.

وهذا القدر من الكلام كاف في أن الإنسان عالم صغير.

وإذ قد ظهر ذلك فقد ظهر أن قواه متصلة كاتصالها في العالم الكبير وأنها مرتقية من أدنى مراتبها إلى أقصاها كالحال في ذلك إلا أنا نريد أن نبين فضل بيان أحوال هذه القوى لأن ذلك غرضنا ومقصودنا الأول وإن كنا لم نصل إليه إلا بعد ما قدمناه، وسنقول في ذلك بتأييد ذي الجود والقدرة ومشيئة الباري تعالى وتقدس علوًا كبيرًا.

الفصل الثالث

في كيفية ارتفاع الحواس الخمس إلى القوة المشتركة ومنها إلى ما فوقها بمنة الله تعالى

قد قلنا فيما تقدم أن للحواس الخمس حسًّا مشتركًا جامعًا يجمعها ويؤَلفها في ذاته ولولاه لتفرقت علوم الحواس ولم يكن لها ما يؤَلفها ولا ما يحفظها بعد أن تزول آثارها.

ونقول الآن: أن النفس لما تحركت الحركة المستوية إلى أسفل على ما كنا بيناه لم يكن ممكنًا في الجسم المركب على جفائه وغلظه أن يتصل بالنفس على لطفها وبعدها من الجوهر الجسمي إلا بوسائط يلطف فيها الجسم أولاً أولا حتى ينتهي إلى غاية ما يمكنه أن ينتهي إليه وهو مركب ثم تجفو قوى النفس أولاً أولا حتى تنتهي إلى غاية ما يمكنها أن تنتهي إليه فحينئذ يمكن أن يقع بينهما الاتصال الذي يصير أحدهما قابلاً أثرًا من الآخر.

ومثال ذلك: أن المعدة إذا لطفت الغذاء بالهضم وحصل منه في القلب دم رقيق لطّف ما أمكن من الغذاءِ عادت الحرارة التي في القلب عليه فزادته تلطيفًا وأجرته في العرق الأجوف الذي يسمى شريانًا وهو ألطف ما يكون من الدم وحصل منه في العرق الأجوف الذي يرتقي إلى الدماغ فيجري فيه جريان الماءِ في الأنابيب، أعني: أنه يبقى فيه فضاءٌ ما فلا يختنق فيه بأن تملأَه، وذلك الدم حار قريب العهد بالقلب فيرتفع منه بخار لطيف يحصل منه في فضاءِ العرق الأجوف الخالي من الدم.

وكلما ارتفع لطف هذا البخار حتى يحصل منه في الدماغ فيتشعب إلى عروق دقاق كثيرة شبيهة بالشعر في الدقة ثم تتفرق في الدماغ فيعتدل بَرْدُه بحرّه ويعتدل هو أيضًا ببرد ذلك ويصير منه ما يسمى روحًا ، وبحسب صفاءِ هذا الروح وتهذبه في آلاته يكون صدور قوى النفس عنه واستعداده لقبوا آثارها من الحس والفهم ، وتنشر الطبيعة حينئذ من الدماغ أعصابًا يكون بها الحس والحركة الإرادية في جميع البدن وبها يتميز الحيوان من النبات.

فمنها العصبة الجوفاءُ التي تنقسم إلى ثقبي العينين وينفذ فيها ذلك الروح وقد تهذب غاية تهذيبه ولطف جدًا فيكون به البصر.

ومنها التي تأتي الأذن فيكون بها السمع وكذلك الباقيات، فإذا حصل في كل واحدة من الحواس أثر من المحسوس تأَدى منه إلى الحس المشترك وهو قوة من قوى النفس في أفق هذا الجوهر اللطيف من الجسم تقبل هذه الآثار كلها.

وكما أن كل حس من الحواس الهمس يختص بنوع من المحسوس فيقبل آثاره ثم يميز أشخاصه فكذلك الحس الجامع المشترك يقبل الآثار من الحواس كلها ثم يميز بينها، إلا أن الفرق بينهما أن الحواس الخمس إنما تقبل الصور بأن تحصل فيها آثار الجزئيات من المحسوس شيئًا بعد شيء.

وأما الحس المشترك فإنه يقبل الصور من الحواس في دفعة واحدة من غير أن يتأثر منها بما يحصل فيه من تلك الصور لأنه في نفسه صورة، والصورة لا تقبل الصورة على طريق التأَثر بل على طريق واحد وبنحو واحد أعلى وأشرف ، وكذلك تدرك الجميع بلا زمان ولا تجزئة ولا انقسام ولا تختلط الصور هناك ولا تتزاحم كما تتزاحم في الأجسام، وترتقي هذه القوة إلى قوة تسمى المتخيلة وربما ظن أنهما واحدة.

وهذه القوة يظهر فعلها بجزءٍ من الدماغ المقدم ثم ترتقي إلى قوة أخرى للنفس هي الحافظة وهي كالخزانة التي تحفظ فيها الأشياء الكثيرة؛ ليستحضر منها ما يحتاج إليه إذا امتد الزمان بها، وهذه القوة يظهر فعلها في الجزءِ المؤَخر من الدماغ.

وهناك قوة أخرى للنفس وهي قوة الفكر تقع فيها حركة الرؤية والتوجه نحو العقل، ويختص بهذه القوة الإنسان دون سائر الحيوان، ويظهر فعلها في البطن الأوسط من بطون الدماغ، وليس للحيوانات الباقية هذا الجزءُ من الدماغ، وإنما لها تلك القوتان في تينك الجزئين فقط، ولذلك لا روية لها، فإذا حصلت تلك الصورة في هذه القوة حتى تقبلها وتنظر فيها فقد ارتقت إلى أفق الإنسان.

وفي هذه المرتبة تظهر الإنسانية وعلى قدر هذه الحركة واستقامتها وصحة نظرها وتميزها تكون مرتبة الإنسان وتميزه عن البهائم وعلى قدر استكمالها بالحركة وقبولها أثر العقل يكون مقداره من الإنسانية.

فإذا جعل الإنسان سعيه بما يستفيده من حواسه أن يرقيها إلى هذه القوة ويتحرك أبدًا في طلب أسبابها ومبادئها الأُول، وأعطاه حينئذ العقل حقائقها فاستكملت صورة الإنسانية فيه وتصورت نفسه بحقائقها الأشياءَ وتلك الحقائق هي أبدية الوجود غير داخلة تحت الكون والفساد ولا تحت المدة والزمان؛ لأنها بسائط ومبادئ فتصير محاولات هذا الإنسان كلها ومساعيه فيها ، ولأن تلك الأشياءِ ليست في زمان فليس فيها ماض ولا مستقبل ويبلغ الإنسان هذه المرتبة متصاعدًا فيها إلى غاية أفقه التي إن تجاوزها لم يكن إنسانًا بل صار ملَكًا كريمًا.

وينبغي أن يتصور ذلك كما تصورت تلك الوسائط الأخرى في أواخر آفاقها ، ومن هاهنا يمكن أن يتبين كيفية الوحي واتصال تلك القوة الشريفة بالإنسان.

الفصل الرابع
في كيفية الوحي[١]

من فهم جميع ما رتبناه فيما تقدم وحصَّله علم أن المقام الذي انتهينا إليه غاية شرف الإنسانية والأفق الأعلى منه، فإذا بلغه الإنسان كان متعرضًا لإحدى منزلتين :

إما أن يرتقي فيه أبدًا ترقيًا طبيعيًا، ومعنى ذلك أن يديم الفكر مدة حياته في جميع الموجودات لينال حقائقها بقدر طاقة البشر فيقوى هاجسه ويحتد نظره وتلوح له الأمور الإلهية فيتقرر في نفسه وتلوح أوضح من الأمور الأوائل التي تسمى بدائة العقول، ولا يحتاج فيها إلى قياس برهاني لأن البرهان هو تدرج من الأوائل ، وهذا التلوح في العقل أعلى منه وأنور وأبهى ، وسنقول في ذلك ما نزيده وضوحًا إذا بلغنا إليه.

وإما أن تأتيه تلك الأمور من غير أن يرتقي فيها بل تنحط تلك إليه لاتصالها.

ومثال ذلك: أن الإنسان إنما ارتقى من قوة الحس إلى قوة التخيل إلى قوة الفكر ومن قوة الفكر إلى إدراك حقائق الأمور التي في العقل، وذلك أن هذه القوى متصلة

---

(١) الوحي: يفيض من العقل الفعّال على العقل المنفعل، القوّة الّتي بها يمكن أن يوقف الإنسان على تحديد الأشياء والأفعال وتسديدها نحو السّعادة بهذه الإضافة الكائنة من العقل الفعّال على العقل المنفعل، بأن يتوسّط بينهما العقل المستفاد. وهو الوحي. (رسائل الفارابي، السّياسات المدينة/ ٤٩) لوح من مرآة الملك للرّوح الإنساني بلا واسطة. (فصوص الحكم/ ٨٨) هو تصريح الأمر الغيبي. (مجمعة رسائل الإمام الغزّالي ٣/ ١٠٥) لا يبعد وجود نفس قويّة يتّصل بالعقول والنّفوس الفلكيّة وتدرك ما عندهما من المغيبات على وجه كلّي، فتحاكيها المتخيّلة بصور جزئيّة مناسبة لها كمحاكاة الخيرات والفضائل بصور جميلة، ومحاكاتها الشّرور والرّذائل بأضدادها، ثمّ ينزّل منها إلى الحسّ المشترك فتصير مشاهدة محسوسة لصفاء الحسّ المشترك لقوّة النّفس على استخلاصها عن تعلّقات الحواسّ الظّاهرة، كما يقع الاستخلاص في حالة النّوم، أي هذه الحالة يقع في حالة اليقظة. وهي الوحي إن كان صاحب النّفس نبيّا. (شرح حكمة العين/ ٣٧٩) الواقع في الباطن بغير حيلة الاستدلال، وتمحّل التّعلّم والاجتهاد ينقسم إلى ما لا يدري الإنسان أنّه كيف حصل، ومن أين حصل، وإلى ما يطّلع معه على السّبب الّذي منه استفيد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقي، والعقل الفعّال للعلوم في النّفوس. فالأوّل يسمّى إلهاما ونفثا في الرّوع، والثّاني يسمّى وحيا، ويختصّ به الأنبياء. (المبدأ والمعاد لصدر الدّين/ ٤٨٤).

اتصالاً روحانيًا كما بينا فيما مضى، فربما عرض لها من قوة قبول بعضها من بعض الآثار أن تنعكس في بعض الأمزجة منحطة كما تصاعدت على سبيل الفيض ، فيؤَثر حينئذ العقل في القوة الفكرية وتؤَثر القوة الفكرية في القوة المتخيلة وتؤَثر القوة المتخيلة في الحس، فيرى الإنسان أمثلة الأمور المقولة، أعني: حقائق الأشياء ومبادئها وأسبابها كأنها خارجة عنه ، وكأنما يراها بنظره ويسمعها بأذنه كما أن النائم يرى أمثلة الأشياء المحسوسة في القوة المتخيلة ويظن أنه يراها من خارج وربما كانت صحيحة مبشرة أو منذرة بالمستأنف.

وربما رأى الأمور بأعيانها من غير تأويل.

وربما يراها مرموزة تحتاج إلى تأويل.

وذلك لأمور تعرض يطول ذكرها في هذا الكتاب كذلك حال هذا المستيقظ إذا استغرقته القوة الغالبة أخذته عن المحسوسات حتى كأنه غائب عنها فيشاهد في القوة المتخيلة أنه انحدر إليها من عُلى فيرى ويسمع ما لا يشك فيه، ولأن تلك الأمور مستقبلها وماضيها واحد لأنها حاضرة معًا فالأمور لائحة له فيشاهد مستقبلها كما يشاهد ماضيها فإذا أخبر بها كانت صحيحة.

وإذا قابل بها أهل الحقائق من العلماء كانت موافقة لأن المبادئ والعلل واحدة وكذلك العواقب والمضار.

فإذا أخبر بها من وصل إليها من أسفل بالتفلسف اتفق رأْيهما وصدَّق أحدهما الآخر بالضرورة وبادر الفيلسوف إلى قبول ما يأتي أكثر من مبادرة كل أحد لأنهما متفقان في تلك الحقائق لأن الفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل والآخر انحط من عُلى، وكما أن المسافة بين السطح والقرار واحدة ولكنهما بالإضافة إلى من في القرار يسمى صعودًا، وبالإضافة إلى من في السطح يسمى هبوطًا، كذلك الحال في تلك الحقائق والمشاهدات عند من يرتقي إليها وعند من ينحط إليها إلا أن تلك الحقائق إذا انحطت لم يكن بدٌ من أن تنصبغ بصبغ هيولاني لأجل القوة المتخيلة، فكما أن الأمور الهيولانية إذا ارتقت إلى العقل سلخ عنها الصور التي كانت لها ، كذلك الأمور العقلية إذا انحطت إلى الأمور المتخيلة ركبتها وألبستها صورًا هيولانية ملائمة لها، فإذا شاهد

الإنسان هذه الحال ولاحظ تلك الأمور لم يشك في صحتها وخضعت لها نفسه واعترفت بها لأنها هي الأمور التي كانت تطلبها بالحركة والروية والجولان.

وكما أنها إذا أصابته بالروية لم تشك فيها كذلك إذا أتت هي، أعني: الروية منحطة إليها لم تشك فيها، وهذه رتبة واسعة العرض تتفاوت فيها درج الأنبياء صلوات الله عليهم ومنازلهم فربما ظهر لهم من الأمور ظهورًا بيّنًا، وربما كان فيه غموض فيلوح لهم ما يلوح وكأَن عليه سترًا ومن دونه حجابًا.

وكذلك حال ما يرونه من الأمور المستقبلة في عالمنا هذا من الفتن والحروب وغيرها فإنهم ربما رأَوا الشيء الذي يكون له إلى مائة سنة فقط، وربما بلغ نظرهم إلى ألف سنة وأنهم عليهم السلام يحتاجون لمن يسمعه إلى الرمز وضرب الأمثال ليقرب من الأفهام وليخرج كلامهم عامًا يفهمه جميع طبقات الناس ويشتركون في الانتفاع به ويأخذ كل واحد منهم نصيبه وحظه على قدر منزلته.

فإذا علم في بعضهم فضلاً من الفهم خصه بالزيادة بقدر ما يعلم من احتماله.

فقد علمنا يقينًا أن ما كان يلقيه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإلى من تقرب منزلته في التحصيل لم يكن ليلقيه منه إلى أبي هريرة ومن كان في طبقته، وكذلك ما كان يخص به ذوي الأحلام والفهم من العرب لم يكن ليعم به جفاة الأعراب والهمج من الناس؛ لأن العلم يجري من النفس مجرى القوت من البدن ؛ إذ كان كمال كل واحد منهما وبقاؤُه هو ما يقيم ذاته ويتم صورته ويزيد في قوته ، وكما أن البدن الضعيف إذا أكثر عليه من الغذاء وكانت كيفيته قوية لم يحتمله ولم يهضمه وصار وبالاً عليه واعتل منه وربما كان سبب هلاكه، فكذلك حال النفس فيما يُلقى إليها من العلم؛ ليكون تدبيرنا فيه شبيهًا بما ندبر به الطفل من تدريجه باللبن إلى أكل لحم البقر على مهل في زمان طويل، ولو هجمنا به على الأغذية الغليظة كلها لكانت سبب هلاكه، وهذا المقدار كاف فيما أردنا بيانه.

الفصل الخامس

في أن العقل ملك مطاع بالطبع

إن الرتبة التي خص الله بها العقل[١] هي أعلى المراتب؛ إذ كانت جميع المبدعات دونه ومحتاجة إليه وهو الذي يمدها بفضائله وإن كان بعضها لأجل بعده عنه وقلة حظه

---

(١) العقل: جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها. (رسائل الكندي الفلسفيّة/ ١٦٥) إنّه الشّيء الّذي لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين. (رسائل فلسفيّة، لمحمّد بن زكريّا الرّازيّ/ ١٨) قوّة تفعل بغير آلة جسمانيّة هي العقل. (رسائل الفارابيّ، الدّعاوي القلبيّة/ ٩) إدراك الإنسان الشّيء بذهنه. وقد يقع على الشّيء الّذي يكون به إدراك الإنسان. (رسائل الفارابيّ، كتاب التّنبيه/ ٢٢) قوّة إدراك المجرّدات. (الجمع بين رأيي الحكيمين/ ٣٣) إنّه جوهر بسيط روحانيّ أبسط من النّفس وأشرف منها، قابل لتأييد الباري- تعالى- علّام بالفعل، مؤيّد للنّفس بلا زمان. (رسائل إخوان الصّفاء ٣/ ١٩٨) هو أوّل موجود فاض من وجود الباري- عزّ وجلّ-. (نفس المصدر ٣/ ١٨١) هو أوّل موجود أوجده الباري- تعالى- وأبدعه من غير واسطة. جوهر روحانيّ فاض من الباري- عزّ وجلّ- وهو باق تامّ كامل. (نفس المصدر ٣/ ١٨٤) إنّ العقل اسم مشترك يقال على معنيين: أحدهما ما تشير به الفلاسفة إلى أنّه أوّل موجود اخترعه الباري- جلّ وعزّ- وهو جوهر بسيط روحانيّ محيط بالأشياء كلّها إحاطة روحانيّة. المعنى الآخر ما يشير به جمهور النّاس إلى أنّه قوّة من قوى النّفس الإنسانيّة الّتي فعلها التّفكّر والرّويّة والنّطق والتّمييز والصّنائع وما شاكلها. (نفس المصدر ٣/ ٢٣٢) هو أوّل موجود جاد به الباري وأوجده، وهو جوهر بسيط روحانيّ فيه جميع صور الموجودات غير متراكمة ولا متزاحمة، كما يكون في نفس الصّانع صور المصنوعات قبل إخراجها ووضعها في الهيولى، وهو فائض تلك الصّور على النّفس الكلّيّة دفعة واحدة بلا زمان، كفيض الشّمس نورها على الهواء. (نفس المصدر ٣/ ٢٣٤) هو جوهر بسيط، مدرك حقائق الأشياء. (نفس المصدر ٣/ ٢٣٧) جوهر بسيط، مدرك للأشياء بحقيقتها، لا بتوسّط زمان، دفعة واحدة. (المقابسات/ ٣٧٢) اسم مشترك لمعان عدّة فيقال عقل: لصحّة الفطرة الأولى في النّاس فيكون حدّه أنّه قوّة بها يجود التّمييز بين الامور القبيحة والحسنة. (الحدود لابن سينا/ ١١، رسائل ابن سينا/ ٨٧) إنّه معان مجتمعة في الذّهن تكون مقدّمات يستنبط بها المصالح والأغراض. إنّه هيئة محمودة للإنسان في حركاته وسكناته وكلامه واختياره. (الحدود لابن سينا/ ١٢، رسائل ابن سينا/ ٨٨) هو الّذي يخلّص المعقولات من المحسوسات ويتشبّه بها. (المبدأ والمعاد لابن سينا/ ١٠٢) الموجود هو المسمّى باسم العرض والّذي لا في موضوع هو الجوهر، فإمّا أن يكون جسما وإثباته مستغنى عنه، وإمّا أن يكون هيولى أو صورة أو مفارقا وهذا قد

منه يتمرد عليه وعلى ذلك فإنه لا محالة يخضع له إذا ظهر له أدنى ظهور، فمثله كمثل الملك الذي يحتجب عن بعض عبيده ويطلع عليهم من حيث لا يرونه فإذا خالفوا أمره وانجروا إلى بعض ما ينهي عنه، فإنما ذلك لأنهم لا يرونه ولا يعلمون أنه يراهم، فإن أحسوا به أدنى إحساس انقبضوا ضرورة وهابوه طبعًا ويظهر هذا المعنى ظهورًا بينًا كثيرًا في البهائم فإنها تخدم الإنسان وتهابه بالطبع وتتبع العدة الكثيرة الداعي الواحد، وربما كانت قوة واحد منهم تزيد على قوى عدة كثير منهم أضعافًا مضاعفة، وكذلك حالها في جميع الأجساد والأجسام والجرأة على البطش.

=

يكون بينه وبين المادّة علاقة لا على سبيل الانطباع ويسمّى نفسا وقد لا يكون بينه وبين المادّة علاقة أصلا فيسمّى عقلا. (التّحصيل/ ٥٨٥) قوّة يقتضى على جميع القوى بالخطإ والصّواب.

(الحدود والفروق/ ٤٢) هو التّصوّرات والتّصديقات الحاصلة للنّفس بالفطرة. إنّه علم ضروريّ بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. (تهافت الفلاسفة/ ٢٨٧) إنّه يطلق ويراد به العلم بحقائق الامور فيكون عبارة عن صفة العلم الّذي محلّه خزانة القلب. وقد يطلق ويراد به المدرك للعلوم، فيكون هو القلب، أعني تلك اللّطيفة الّتي هي حقيقة الإنسان. (مجموعة الرّسائل للغزاليّ ٢/ ٤١) الّذي يفهم ذاته هو العقل باكتساب المعقول. إنّ قابل المعقول والجوهر هو العقل. (تفسير ما بعد الطّبيعة/ ١٦١٤) إنّ الطّبيعة إذا كانت تفعل فعلا في غاية النّظام من غير أن تكون عاقلة أنّها ملهمة من قوى فاعلة هي أشرف منها وهي المسمّى عقلا. (نفس المصدر/ ١٥٠٣) هو المعقول نفسه. (نفس المصدر/ ١٦٠٠) الّذي يفهم ذاته هو ملتذّ بذاته وهو الملتذّ بالحقيقة والّذي هو بهذه الصّفة هو العقل. (نفس المصدر/ ١٦١٦) إنّ القابل والمقبول من العقل كلاهما عقل. (نفس المصدر/ ١٦١٧) كلّ صورة غير هيولانيّة فهي عقل، سواء عقلت أو لم تعقل. (رسائل ابن رشد كتاب النّفس/ ٧٩) العقل علّة إدراك حقائق الأشياء وصحّتها. (في النّفس/ ٩) جوهر مجرّد عن المادّة ولواحقها. (المباحث المشرقيّة ٢/ ٤٣٦). الجوهر إمّا أن يكون محلّا لجوهر آخر وهو الهيولى أو حالّا في الجوهر وهو الصّورة أو مركّبا منهما وهو الجسم أو لا يكون كذلك... هو المفارق. والمفارق إن تعلّق بالجسم تعلّق التّدبير والتّصرّف فهو النّفس، وإن لم يتعلّق بالجسم تعلّق التّدبير فهو العقل. (مطالع الأنظار/ ١٠٩) الجوهر إن كان حالّا في محلّ فهو الصّورة، وإن كان محلّا فهو المادّة والهيولى، وإن كان مركّبا من الحالّ والمحلّ فهو الجسم، وإن لم يكن حالّا ولا محلّا ولا مركّبا منهما، فإمّا أن يكون متعلّقا بالأبدان تعلّق التّدبير والتّصرّف فهو النّفس، أو لا فهو العقل. (إيضاح المقاصد من حكمة عين القواعد/ ١٢٦، شرح المواقف/ ٣٥٠، حاشية المحاكمات/ ٤٠٠).

وعلى هذا يجري مجرى أمر الناس بعضهم مع بعض، فإن عامتهم إذا وجدوا بينهم واحدًا أكثر حظًا من العقل فإنهم يهابونه ويخضعون له ويتبعونه منقادين مستسلمين كنسبة البهائم إذ الطبيعة واحدة بعينها، وكذلك يفعل أولئك العقلاءُ بمن هو في العقل من الطاعة والانقياد وشدة المهابة ولقوة هذا الأمر الطبيعي ربما ظُنَّ بواحد من الناس أكثر مما فيه من العقل فينقاد له، وربما أَوهم الشرير ومن يحب الترأُس والغلبة ويؤثر التسلط والكرامة على غير استحقاق أثرًا من آثار العقل بتصنع شديد وفي مدة طويلة فيتم ما يريد فقد بان ما أردنا بيانه من مرتبة العقل وأنه ملك مطاع بالطبع وأن جميعها دونه تخدمه وتعبده وتسعد به لأنه ذاتيٌّ غير متصنع له.

فأما ضروب التصنع وما يقع من جهة الاتفاق والبخت فليس مما يبحث فيه وله موضع آخر إن اقتضاه الكلام تكلمنا فيه.

وإنما أفردنا هذا الباب لندل به على أن من شاهد أحد الأنبياء صلوات الله عليهم من أهل زمانهم يرون فيه من آثار العقل ورجحانه ما لا يظهر لنا بالأخيار فيتبعونه وينقادون له بالطبع وكذلك يبصرونه ببصائر وقادة ويبذلون فيه المهج والأموال ويعادون به الأهلين والأولاد ويهجرون بسببه الملاذ والشهوات ويهابونه مع ذلك فوق هيبة الملك المتسلط بالمال المتغلب بالجند والحشم المحتشد بسباع الناس الذين يخدعهم بإباحة الشهوات والتمكن منها، وذلك لما ذكرنا من مهابة الناس والحيوان لمن له رتبة زائدة عليهم في العقل وأثر من آثاره عليه.

وليس لمعترض أن يعترض علينا بمن عاند وتكبر وكذب الأنبياء عليهم السلام ولم يتبعهم لأنه يعرض في جميع الأشياء التي في الطبع أن يتكلف متكلفٌ العدولَ عنهم بالاختيار السيء ولغرض من الأغراض ولاسيما إذا كان ذلك الغرض عن باعث قويّ من حسد أو محبة لرياسة أو خوف من فوت شهوة أو غير ذلك من ضروب الشر.

وربما كان الإنسان مطبوعًا على أمر من الأمور فيتكلف ضده حتى يكاذب نفسه ويقع له على أمر من الأمور أنه صادق، وهذا من أعجب ما يلحق الإنسان من الآفات ، ويسمى به معجبًا لأنه يكون جبانًا فيظهر الشجاعة، وبخيلاً فيبدي السماحة، وظلومًا فيتكلف النصفة، وهذا كثير.

وإنما قصدنا ذكر ما هو في الطبع ويجري عليه الإنسان بغير تلكف حتى يستسلم له، وقد بلغنا ما أردنا منه بتأييد الله عز وجل.

الفصل السادس

في المنام الصادق وأنه جزء من النبوة

ليس يتعذر الوقوف على أن المنام الصادق جزءٌ من النبوة مما شرحنا من أمر النفس فيما سلف وحركتها الذاتية بعد أن نذكر ما النبوة وما سببه، فنقول:

النوم[1] بالحقيقة هو تعطيل النفس آلات الحواس إجمامًا لها، وإنما وجب هذا الإجمام فيها لأنها آلات جسمانية وصور في هيولى فيعرض لها الكلال والفتور والاشتغال كما يعرض لسائر الأجسام فيضطر فيها إلى الراحة لتعود جامة ، ولتتلافى الطبيعة في تلك ما عرض لها من نقص وخلل فتتمه.

مثال ذلك: أن العين إذا استعملت بالنظر فإنما يتم فعلها بالروح المهذب في الشريانات التي في بطون الدماغ وهو يأتي في العصبة المجوفة المنقسمة إلي ثقبي العين

---

(١) النّوم: عبارة عن انصراف النّفس عن مباشرة الحواسّ. فهو درجة من درجات التّفكير إلّا أنّه نوع من التّفكير العميق. هو استعمال القوّة المصوّرة استعمالا كاملا لا يعوقه تفرّق القوّة النّفسيّة بين الحسّ والتّصوّر. (رسائل الكندي الفلسفيّة/ ٢٨٤) هو ترك الحيّ الثّابت على طباعه في الصحّة، استعمال الحواسّ بالطّبع. (نفس المصدر/ ٢٩٥) هو ترك النّفس استعمال الحواسّ. (رسائل إخوان الصّفاء ٤/ ٨٤، المبدأ والمعاد لصدر الدّين/ ٤٦٨) هو اشتغال النّفس عن الجسد بغيره مع شمول عنايتها به. (رسائل إخوان الصّفاء ٣/ ٣٩٨) اليقظة هي استعمال النّفس المنطقيّة لآلات البدن نحو الخارجات عن البدن، وتصريفها الحواسّ نحو محسوساتها. والنّوم ترك النّفس المنطقيّة استعمال آلات البدن من غير مرض عارض والإنسان على طباعه. (المقابسات/ ٣٦٧) هو غوص القوى في عمق النّفس. (المصدر/ ٣٧٤) رطوبة معتدلة تتحصّر في الدّماغ تمنع الرّوح النّفساني من الجريان في الأعصاب يتبعها سكون الحيوان من اليقظة بتصرّف الحواسّ، لغاية هي معيشة الحيوان. (الحدود والفروق/ ٨٦) النّوم واليقظة إنّما يكونان بوجود النّفس، واليقظة معادلة التفكّر، والنّوم معادل للجدة. (في النّفس/ ٣٠) إنّ النّوم حسّ لا بالقوّة واليقظة حسّ لا بالفعل. (نفس المصدر/ ٢١٥) إنّ ماهيّة النّوم إنّما هو غؤور هذه القوّة الحسّاسة المشتركة إلى داخل الجسم. وقد يرسم بأنّ النّوم سكون الحركة واليقظة اتّصال الحركة. (نفس المصدر/ ٢١٦) قد يرسم النّوم بأنّه ربط القوى ووثاقها، واليقظة بأنّها انحلال القوى وضعفها. (نفس المصدر/ ٢١٧) هو غؤور الحسّ المشترك إلى العضو الّذي هو مبدؤه. (نفس المصدر/ ٢١٩) اليقظة هي من فعل الحسّ، والنّوم هو ضعف في الحسّ (نفس المصدر/ ٢٤٨).

وهو من اللطف بحيث يتحلل من ذلك الثقب في طبقات العين ويخرج منه الشعاع بالقوة التي تتبعه ويستكمل بالضوء الذي يصادفه من خارج العين في الهواء من الشمس أو غيرها فيقبل من ضوء الأشياء التي حصلت في الجرم الثقيل من باطن العين ما يسمى رؤية ونظرًا.

فإذا تحلل ذلك الروح المتهذب الصافي بأجمعه تبعه الكدر منه والغلظ ، ولذلك يحس الإنسان في تلك الحال بأَلم يعرض في عينه وكأَنه يحس فيها شبيهًا بالرمل والخشونة لأن مثل العين في تلك الحال مصل حوض فيه ماء صاف رائق فخرج من منفذه أولاً أولاً ثم تبعه الكدر، فإن سد ذلك المنفذ وأسيح إليه ماء آخر جرى أمره على الاستقامة وإلا فسد وفني ماء الحوض.

وكذلك حال العين إذا فني الروح الصافي منها وجب أن يسد ثقبها ويطبق جفنها إلى أن يجمع فيها من الروح الصافي ما يكون سبب إبصارها ولا تزال هذه الحال متداولة للعين ما دام أمرها جاريًا على المجرى الطبيعي وإذا كان ذلك كذلك فالإجمام واجب في العين وسائر الحواس ، وهذا الإجمام هو النوم، وأما سببه فقد ذكرناه ونعود الآن فنقول:

إن النفس في تلك الحال التي تتعطل منها الحواس لا تهدأ من الحركة فإذا لم تجد الجزئيات من خارج عادت إلى ما حصلته واستفادته من الحواس واستحفظته في القوة الحافظة التي سميناها الذاكرة وهي كالخزانة لها فأخذت تتصفحه وأقبلت تستعرضه وربما ركبت تلك الأشياء بعضها على بعض وهو شبيه بالغيب من فعلها وهو ما يرى الإنسان كأنه يطير وكأن جملاً مركبًا على طائر وثورًا على بدن إنسان، وضروب التركيبات الباطلة وجميع ما يسمى أضغاث أحلام.

فإذا تحركت النفس في حال النوم نحو العقل ولم تشتغل بتصفح ما استفادته من الحواس رأَت الأشياء المزمعة على الكون في الأحوال المستقبلة، فإذا كان لها هناك حظ من هذا المعنى وافر كان ما تراه صادقًا بغير تأويل لأنها ترى الشيء بعينه.

وإن كان الحظ قليلاً كان ما تراه مرموزًا يحتاج إلى تأويل ، وهذه الحال بعض أحوال النبوة لأن النبي صلى الله عليه وسلم تكون هذه حاله في يقظته ونومه وتكون مستمرة له.

فأما غيره من الناس فإنما يعرض لهم ذلك في النوم وفي بعض الأحيان وليس يتم لهم ذلك بالقصد ولا عند التعلم له، وعلى ذلك لو لم يرَ الإنسان في عمره كله إلا منامًا واحدًا لوجب أن ينتبه منه على فعل النفس وأن يشعر ولو أدنى شعور ويعلم منها ما يشير إلى سعادتها وما هي معرضة له من الخلود والنعيم ، فإذا فهمه وسكن إليه وعمل عليه سعد، ونحن نسأل الله التوفيق والعصمة والهداية إلى الصراط المستقيم.

الفصل السابع

في الفرق بين النبوة[١] والكهانة

ينبغي أن نذكر حقيقة الكهانة لنبين الفرق بينها وبين النبوة ، فنقول:

إن هذه القوة من قوى النفس أكثر ما تظهر في أوقات الأنبياء عليهم السلام وقبيل ورودهم ، وذلك أن الفلك إذا أخذ يتشكل بشكل ما يتم به في العالم حدث عظيم أو يكمل به أمر عظيم كثر بين ابتداء ذلك الشكل وآخره الذي هو غايته وتمامه في الأرض أحداث شبيهة بما يريد أن يتم ولكنها تكون غير تامة لأن سببها أيضًا غير تام ، فإذا استكمل ذلك الشكل في الفلك وصار إلى غايته تم به في العالم ما يقتضيه ذلك الشكل، وإنما يكون ذلك في ساعة قصيرة من الزمان لسرعة تبدل الأشكال في الفلك وكثرة حركاتها المختلفة فتصير تلك القوة التي يوجبها ذلك الشكل في شخص واحد أو شخصين أو ثلاثة ويستوعب ذلك الشخص تلك القوة ويستوفيها على التمام والكمال.

فأما من قرب من ذلك الشكل ولم يستوفه لتغيره بالحركة، فإنه يكون ناقص القوة بحسب بعده عن الشكل ، ولذلك تكون النبوة أكثر ما تظهر في الزمان الطويل لشخص واحد.

وربما عرض في بعض الأزمنة أن يوحى إلى اثنين أو ثلاثة وربما اجتمعوا في مدينة وربما تفرقوا في عدة مدن بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة والنظر الإلهي لكافة الناس.

---

(١) النّبوّة: هو النّبوّة الحقيقيّة الحاصلة في الأزل الباقية إلى الأبد، وهو اطلاع النّبي المخصوص بها على استعداد جميع الموجودات بحسب ذواتها وماهيّاتها وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه الّذي يطلبه بلسان استعداده من حيث أنّه الإنباء الذّاتي. والتّعليم الحقيقي الأزلي، المسمّى بالرّبوبيّة العظمى والسّلطنة الكبرى. وصاحب هذا المقام هو الموسوم بالخليفة الأعظم.

والمقيّدة هي الإخبار عن الحقائق الإلهيّة، أي معرفة ذات الحقّ، وأسمائه وصفاته وأحكامه. (كلمات مكنونة/ ١٨٦)

فإذا ظهرت النبوة التي هي ما قصد إليه بذلك الشكل يتبين حينئذ قصور تلك القوى التي تقدمته أو تأَخرت عنه وعجزها ونقصانها عن ذلك التمام ولذلك أيضًا يكون ما يظهر في زمان كل نبي من جنس ما يريد أن يتم على يده ومن نوع ما يتحقق به .

وفي ذلك النهج وعلى تلك الطريقة وقد بينه المتكلمون في زماننا هذا على ما ذكرته فقالوا:

إنما يبعث الله عز وجل إلى كل قوم بنبي يأتيهم من جنس ما يدعون مع الفضل فيه والبراعة والتبريز بالمعجز الذي لا يطيقونه ولا في منُنَهم مثله ليكون أَبهر لحجتهم وأوكد لدلالتهم وأجدر أن لا يقول الناس جئتنا بما لا نعرف منه شيئًا ، ولو عرفنا منه شيئًا لأَتينا بمثله ، فهذا المعنى الذي ذهب إليه المتكلمون وإن كان صحيحًا فإنما هو الهام بما ذكرناه.

ثم صفة الكاهن، فنقول: إن صاحب هذه القوة إذا أحسَّ بها من نفسه تحرك بالإرادة ليكملها وهي في نفسه ناقصة فيبرزها في أمور حسية ويبرزها في علامات تجري مجرى الفأل والزجر وطرق الحصى وما أشبه ذلك.

وربما استعان بالكلام الذي فيه تكلف من سجع وموازنة لينصرف من نفسه عن الحواس إليه فتتداخل نفسه ويقوى فيها ذلك الأثر ويهجس في قلبه عن تلك الحركة في نفسها ما يعقده على لسانه.

فربما صدق ووافق الحق وربما كذب.

وذلك أنه تمم نقصه بأمره بنقص في غيره ملائم فعرض له الصدق والكذب جميعًا، وإذا عرض هذا صار غير موثوق به وربما يكذب الكلامين من تلقاءِ نفسه وبالتعمد خوفًا من أن يبور سوقه وتكسد بضاعته فيستعمل حينئذ الزرق ويخبر بما لا أثر له في نفسه ولا يجد له حركة لتمويه أمره فيضطر إلى الظنون والتخمينات.

وينبغي أن يتصور للكهانة غرض كثير فإن درجات أصحابها متفاوتة بحسب قربهم من غاية الأفق الإنساني وبعدهم عنه وعلى قدر قبولهم الأثر الأعلى.

وعلى كل حال فإنهم متميزون عن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بالكذب الذي لابد أن يعتريهم وبما يدعونه من المحالات المحمولة على قدر ما أعطوه.

فإن اتفق لواحد منهم أن يكون صادقًا لا يتجاوز بما يدعيه رتبته ومقامه فأَول ما يلوح له أمر النبي صلوات الله عليه، فإنه يعرف فضله وصدقه ويكون أول مؤمن به ومتبع أمره ومشيد له كما روي عن سواد بن قارب[1] وطُلَيْحَة[1] وغيرهما من الكهنة الذين آمنوا فيما بعد وحسن إسلامهم وثبتوا عليه إلى وقت وفاتهم.

---

(١) سَواد بْن قَارب الْأَزْدِيّ، صحابي كان كاهنا في الجاهلية، وكان شاعرا.. كما جاء في كتب الأخبار والتراجم، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة: قال البخاريّ وأبو حاتم والبرديجي، والدّارقطنيّ: له صحبة، وجاء في معرفة الصحابة لابن منده: كَانَ أَحَدَ كُهَّانِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَسْلَمَ.

وسبب إسلامه أن تابعه من الجن أخبره ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعاه إلى اتباعه في قصة طويلة قصها على عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته، وملخصلها كما جاء في السير والإصابة وغيرهما: أنه دَخَلَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَالَ: يَا سَوَاد بْنَ قَارِبٍ: نَشَدْتُكَ بِاللهِ، هَلْ تُحْسِنُ مِنْ كِهَانَتِكَ الْيَوْمَ شَيْئًا؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللهِ مَا اسْتَقْبَلْتَ أَحَدًا مِنْ جُلَسَائِكَ بِمِثْلِ الَّذِي اسْتَقْبَلْتَنِي بِهِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ يَا سَوَاد، مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ شِرْكِنَا أَعْظَمَ مِمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ مِنْ كِهَانَتِكَ، وَاللهِ يَا سَوَادُ، لَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ حَدِيثٌ إِنَّهُ لَعَجَبٌ مِنَ الْعَجَبِ قَالَ: إِيْ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ لَعَجَبٌ مِنَ الْعَجَبِ، قَالَ: فَحَدِّثْنِيهِ قَالَ: كُنْتُ كَاهِنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ نَائِمٌ، إِذْ أَتَانِي نَجِيٌّ فَضَرَبَنِي بِرِجْلِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا سَوَاد بْنَ قَارِبٍ، اسْمَعْ أَقُلْ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: هَاتِ، قَالَ: قُمْ يَا سَوَادَ بْنَ قَارِبٍ، أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ، قَالَ: فَاسْتَوَيْتُ قَاعِدًا، وَأَدْبَرَ وَهو يَقُولُ: عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَأَرْجَاسِهَا، وَرَحْلِهَا الْعِيسَ بِأَحْلاسِهَا، تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى، مَا صَالَحُوهَا مِثْلَ أَرْجَاسِهَا، ثُمَّ عُدْتُ فَنِمْتُ، فَأَتَانِي فَضَرَبَنِي بِرِجْلِهِ، وَقَالَ: قُمْ يَا سَوَادَ بْنَ قَارِبٍ، أَتَاكَ رَسُولٌ من لؤي بن غالب، فَاسْتَوَيْتُ قَاعِدًا وَأَدْبَرَ، وَهو يَقُولُ: عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَأَخْبَارِهَا، وَرِحَلِهَا الْعِيسَ بِأَكْوَارِهَا، تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى، مَا مُؤْمِنُوهَا مِثْلَ كُفَّارِهَا، ثُمَّ عُدْتُ فَنِمْتُ، فَأَتَانِي، فَضَرَبَنِي بِرِجْلِهِ وَقَالَ: قُمْ يَا سَوَادَ بْنَ قَارِبٍ، أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ، فَاسْتَوَيْتُ قَاعِدًا وَأَدْبَرَ، وَهو يَقُولُ: عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلابِهَا وَرَحْلِهَا الْعِيسَ بِأَقْتَابِهَا تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى، مَا صَادِقُوهَا مِثْلَ كَذَّابِهَا، فَارْحلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ، وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى رَأْسِهَا، فَأَصْبَحْتُ فَاقْتَعَدْتُ بَعِيرًا لِي حَتَّى أَتَيْتُ مَكَّةَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ظَهَرَ، قَالَ: فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ وَبَايَعْتُهُ.

وفي رواية: فَوَثَبَ عُمَرُ فَالْتَزَمْتُهُ، وَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ.

وفي بعض روايات القصة أنه قال: فَفَرِحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَرَحًا شَدِيدًا بِمَا قُلْتُ وَأَسْلَمْتُ وَعَلَّمُونِي الْإِسْلَامَ.

=

وفي رواية: فَضَحِكَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لي: أفلحت يا سواد ـ وعلق الذهبي على هذا الحديث فقال: هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ بِالْمَرَّةِ... وَلَكِنَّ أَصْلَ الْحَدِيثِ مَشْهُورٌ.

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: وأصل هذه القصّة في صحيح البخاريّ من طريق سالم عن أبيه.

وقد قال سواد في قصة إسلامه من قصيدة يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم ويخاطبه بقوله:

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ ... وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ

وَأَنَّكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسِيلَةً ... إِلَى اللهِ يَا ابْنَ الأَكْرَمِينَ الأَطَايِبِ

فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ ... وَإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ

وَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لاَ ذُو شَفَاعَةٍ ... سِوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

توفي سواد ـ رضي الله عنه ـ بالبصرة عام: ١٥هـ، كما جاء في معجم أعلام شعراء المدح النبوي لمحمد درنيقة، والأعلام للزركلي.

(١) كان طليحة أحد كهنة بني أسد، وقد ادَّعى النبوَّة هو الآخر في أواخر حياة النبيّ شأنه في ذلك شأن الأسود العنسي ومسيلمة، واستقرَّ في بزاخة؛ وهي ماءٌ لبني أسد. وظهر أمره بعد وفاة النبي فتبعه قومه واستقطبوا حلفاءهم من طيء والغوث ومن إليهم، وانضمَّت إليه غطفان، والتفَّ حوله عوام طيء والغوث وبني أسد.

كانت منازل بني أسد في نجد، وتقع إلى الشرق من ديار طيء وإلى الجنوب من منازل بكر، وإلى الشمال من ديار هوازن وغطفان، وتتاخم قبائل عبد القيس وتميم من الغرب. وبحكم هذا التجاور تحالفت هذه القبائل أو تخاصمت وفقًا لتطور أوضاعها والظروف المحيطة بها.

إسلام بني أسد:

قدم وفد بني أسد إلى المدينة لمبايعة النبيّ والدخول في الإسلام، وقد تألَّف من عشرة أشخاص منهم ضرار بن الأزور، ووابصة بن مبعد، وطليحة بن خويلد، وغيرهم. ويبدو أنَّهم كانوا في حال عداء مع جيرانهم بني طيء ففصل النبيُّ في هذا النزاع وكتب لهم كتابًا -كتبه له خالد بن سعيد- ورد فيه: "أَلَا يَقْرَبَنَّ مِيَاهَ طَيِّء وَأَرْضَهُمْ؛ فَإِنَّهُ لَا تَحِلُّ لَهُمْ مِيَاهُهُمْ، وَلَا يَلْجَنُ أَرْضَهُمْ مَنْ أَوْلَجُوا". وأقرَّ عليهم قضاعي بن عمرو وهو من بني عذرة، وجعله عاملًا عليهم، كما كتب إلى حصين بن نضلة الأسدي: "أَنَّ لَهُ آرَامًا وَكِسَّةَ لَا يُحَاقُّهُ فِيهَا أَحَدٌ". أي أنَّ له أصلًا وشرفًا لا يُنازعه فيهما أحد.

كانت أسد وغطفان وطيء قد تحالفت في الجاهلية قبل البعثة النبويَّة، ثُمَّ حدث خلافٌ بينهم فخرجت طيء من الحلف، فأجلاها بنو أسد وغطفان عن ديارها وانقطع بذلك ما بينها وبينهما، وهذا الذي دفع النبيَّ إلى إصلاح ذات البين ومنع أسدًا من التعدِّي على مياه طيء وأرضهم، ثُمَّ حدث تباعدٌ

=

بين الحليفين أسد وغطفان، ولمَّا ادَّعي طليحة النبوَّة وظهر أمره بعد وفاة النبيِّ ساندته غطفان؛ لأنَّها كانت على عداءٍ مع قريش، وقال عيينة بن حصن الفزَّاري: "ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد، وإني لمجدِّد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة، والله لأن اتبع نبيًّا من الحليفين أحبُّ إلينا من أن نتبع قريشًا، وقد مات محمَّدٌ وطليحة حي". والواقع أنَّ هذه القبائل المضريَّة كانت تكره سيادة قريش.

تنبؤ طليحة بن خويلد الأسدي:

ليس واضحًا ما دفع طليحة إلى التنبُّؤ، وربَّما كان للتنافس القبلي دورٌ في ذلك بدليل قول عيينة بن حصن الذي أشرنا إليه، بالإضافة إلى انتشار ظاهرة التنبُّؤ في بلاد العرب.

لم يَدْعُ طليحة العرب إلى العودة لعبادة الأصنام، كما لم يدعُ غيره من المتنبِّئين إلى العودة لعبادتها؛ والراجح أنَّ مردَّ ذلك بأنَّ النبيَّ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم قضى على الوثنيَّة في الجزيرة العربية قضاءً مبرمًا، واستقرَّت عقيدة التوحيد في النفوس بشكلٍ جعل التفكير في العودة إلى عبادة الأصنام ضربًا من الهذيان، فدعا إلى أفكارٍ لم يحفظ لنا التاريخ منها شيئًا يُذكر، وكلُّ ما وصل إلينا أنَّه أنكر الركوع والسجود في الصلاة، وقال: "إنَّ الله لم يأمر أن تُمرِّغوا وجوهكم في التراب، أو أن تُقوِّسوا ظهوركم في الصلاة"، وقال -أيضًا-: "إنَّ الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئًا، فاذكروا الله أعفَّةً قيامًا فإنَّ الرغوة فوق الصريح". وهذا تأثيرٌ نصرانيٌّ، الراجح أنَّ السبب في ندرة المعلومات يعود إلى أنَّ المسلمين الأوائل لم يُدوِّنوا إلَّا ما كان يتوافق مع أحكام الدين الإسلامي، وأهملوا ما دون ذلك.

محاربة النبيِّ صلى الله عليه وسلم لطليحة بن خويلد:

لقد حارب النبيُّ صلى الله عليه وسلم انتشار ظاهرة التنبُّؤ في حياته، فكما أوعز إلى مقاومة الأسود العنسي والتخلُّص منه إمَّا غيلة وإمَّا مصادمة، فقد وجَّه ضرار بن الأزور إلى عمَّاله على بني أسد يأمرهم بالقيام على كلِّ من ارتد، ونزل المسلمون واردات ونزل طليحة ومن معه سميراء، وكانت كفَّة المسلمين هي الراجحة بفعل تواتر الأنباء على انتصاراتهم في غير منطقة، حتى همَّ ضِرار بالسير إلى طليحة ومقابلته، ولقد سبقه أحد المسلمين يُريد أن يتخلَّص من هذا المتنبِّئ فضربه بالسلاح فأخطأه، وأسرع المحيطون به باستغلال هذه الحادثة، وأذاعوها بين الناس مدَّعين بأنَّ السلاح لا يُؤثِّر في نبيِّهم، وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يستعدُّون لمواجهة هذا الموقف إذ جاءهم نعي النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فاضطربوا وتناقص عددهم، وهرع الكثيرون منهم إلى طليحة يُتابعونه ويُؤيِّدونه.

انظر: كتاب تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، لمحمد سهيل طقوش.

الفصل الثامن
في النبي المرسل وغير المرسل

أما النبي المرسل[١] فإنه يتميز عن الناس بخصال كثيرة؛ أحدها أم للمرسل من الفضائل ما لا يجتمع إلاَّ فيه ويتميز بها عن غيره ولا تكون مجتمعة في سواه.

فأما النبي غير المرسل فإنه يلوح له ما يلوح من حقائق الأمور ويتجلى له في الأفق الذي ينتهي إليه ما يكون فيضًا عليه من فوق ولا يكون مرتقيًا إليه من أسفل بالتعليم والتدريج ولا يكون مأمورًا بأَمر يتحمله ولا يبلغ من قوته فيما يلوح له من الأمور أن يتجاوز القوة الفكرية ويتأَدى إلى الخيالية وما يليها إلا أنه خوطب بما يسمعه ويسمى مناجاة.

وهذا الإنسان شريف جدًا من بين الناس مخصوص بفيض يأْتيه من الحق فهو سعيد بنفسه مستبصر في أمره.

فإن دعا إنسانًا إلى رأيه فعلى حسب شفقة الناس بعضهم على بعض وإيثار بعضهم على بعض في المصلحة لا على أنه حتم عليه لازم له.

وليس يحتاج من تلك الخصال الكثيرة إلا إلى إحدى عشرة خصلة يكون فيه منها عشر.

وينبغي أن تجتمع في الإمام القائم مقام النبي عليه السلام وخصلة واحدة يباين بها الإمام ويختص بها وهي القوة الفائضة عليه من غير أن يرتقي إليها بتعليم ولا توقيف ولا بتدريج نحوها فيسعى في طلب الحكمة على سبيل الفلسفة.

---

(١) النّبيّ: هو الشّخص المؤيّد بالتّأييد الإلهي الواضع للشّرائع والأحكام الّتي يفيد انتظام أمور النّاس في معاشهم ومعادهم بحسب الاجتماع والانفراد إذا أطاعوه. (مصارع المصارع/ ٢٠١) هو من اجتمع فيه خواصّ ثلاث:

الأوّل أن يكون له اطّلاع على المغيبات الكائنة، والماضية، والآتية. وليس المراد، الاطّلاع على الجميع بل على البعض.

والثّاني ظهور الأفعال الخارقة للعادة، لكون هيولى عالم العناصر مطيعة له، وهذا بناء على تأثير النّفوس في الأجسام وأحوالها.

والثّالث: أن يرى الملائكة مصوّرة بصور محسوسة، ويسمع كلامهم وحيا من الله تعالى إليه. (كشّاف اصطلاحات الفنون/ ١٣٥٩).

الفصل التاسع
في أصناف الوحي

أصناف الوحي يجب أن تكون بعدد أصناف قوى النفس ، وذلك أن الفيض الذي يأتي النفس إما أن تقبله بجميع قواها أو ببعضها[١].

---

(١) استخدم القرآن الكريم مفردة "الوحي" في موارد عدّة أُريد بها معانٍ مختلفة: ويمكن إجمال موارد الاستخدام القرآني لمفردة "الوحي"، تبعاً لمقسم المعنى الاصطلاحي للوحي وفق التالي:

أ- الوحي إلى غير الأنبياء:

- الإيماءة الخفية (وحي الإشارة): وهو المعنى اللغوي نفسه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

- تركيز غريزيّ فطريّ في الإنسان والحيوان(وحي الإلهام): وهو تكوين طبيعيّ مجعول في الإنسان والحيوان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾ ، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾.

- تركيز طبيعي في الجماد (وحي التقدير): وهو تكوين طبيعيّ مجعول في الجمادات، ومنه وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾.

- أمر رحماني (وحي الأمر): وهو شعور نفساني داخلي مصدره الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي...﴾ ، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ...﴾.

- وسوسة شيطانية (وحي الكذب): وهو شعور نفساني داخلي مصدره الشيطان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾.

ب- الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام (وحي النبوّة والرسالة): وهو اتّصال غيبيّ بين الله وأنبيائه عليهم السلام، ويختلف عن سائر الإيحاءات المعروفة لجهة مصدره الغيبي اتّصالاً بما وراء المادَّة. وهذا هو المعنى الاصطلاحي للوحي، وقد استعمله القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعاً، منها: قوله تعالى:﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ...﴾ ، والوحي الوارد في هذه الآية هو من وحي الخبر(بحسب تعبير الرواية المتقدّمة)، وهو هداية ربّانيّة مجعولة في نفوس الأنبياء عليهم السلام بوحي باطني وتأييد سماوي.

وظاهرة الوحي من مختصّات مقام النبوّة، ولم يكن النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم بِدعاً من الأنبياء عليهم السلام في هذا الاختصاص النبويّ، ولا أوّل مَن خاطب الناس باسم الوحي السماوي: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ...﴾. ودفعاً لهذا الاستنكار الغريب، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾.

وقوى النفس تنقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين، وهما: الحس والعقل.

وكل واحد من هذين القسمين ينقسم إلى أقسام كثيرة، وأقسامها أيضًا إلى أقسام كثيرة حتى ينتهي إلى الجزئيات التي لا نهاية لها، وإنما عرض هذا الانقسام بحسب الآلات والمدركات الكثيرة.

وأما قواها التي في الحواس فمنها ما هو في أفق النبات ومنها ما هو في أفق الحيوان البهيمي ومنها ما هو في أفق الإنسان وأعلاها رتبة ما كان في أفق الإنسان، أعني: حس السمع والبصر، وذلك أنا قد بينا فيما تقدم أن أول ما يقبله الحيوان من أثر النفس مما يتميز به عن النبات حس اللمس الذي يوجد في أنواع الصدف ثم حس الذوق والشمّ اللذين هما في أصناف الدود وكثير من الفراش ثم آخره إذا قبل صورة السمع والبصر صار منه الحيوان الشريف الذي شرحنا من أمره ما شرحنا فيما سلف وإنما شرحنا من أمره ما شرحنا لنبينه ونفهم به أن ما صيَّر هذين الجنسين شريفين أنهما أبسط وأقل مخالطة للهيولى وذلك أنهما يقبلان صورة الأمور من غير استحالة إليها.

فأما تلك الحواس الأُخر فإنها لا تقبل الأَثر إلا بمخالطة وممازجة واستحالة هيولانية وإذا كانت صورة الحقائق التي تأتي النفس من فوق من غير ملابسة الشيء من الهيولى لم تتجاوز حس السمع والبصر لأنه ليس في طاقة الحواس الأُخر أن تقبلها بنوع من الأنواع ولا بجهة من الجهات، وعلى أن تلك المعاني البسيطة الشريفة إذا انتهت إلى السمع والبصر صار فيها ظل الهيولى وكذلك يظهر في معرض منها ولم يمكن بعد ذلك أن يتجاوزهما إلى كثافة أخرى لأن في ذلك جزأً خارجًا عن ذواتها وهذا محال، فد تبين أن أصناف الوحي بعدد أصناف قوى النفس إلا ما استثنى به من الحيوان الثلاث التي هي في أفق الحيوان البهيمي القريب من النبات.

وأقواها ما اشتملت عليه النفس بقواها الباقية كلها ثم ما اشتملت عليه ببعضها إلى أن تنتهي إلى ما تقبله بقوة واحدة من قواها والله الموفق.

الفصل العاشر

في الفرق بين النبي والمتنبي

إن هذا الفرق وإن كان بينًا جدًّا عند أهل الحكمة والنظر الصحيح فإنه خفيٌّ عند العوام من الناس وما أشبه العوام ممن يدعي الخصوص فلذلك يجب أن نذكر فيه شيئًا لائقًا بهذا الكتاب ليكون تامًا به من غير إطالة فنقول:

إن النبي صلى الله عليه وسلم متميز بالرتبة التي شرحناها له وبالخصائص التي ذكرناها من سائر الناس فهو غير محتاج إلى تعاطي ما يتعاطاه أهل الحاجات إلى الملاذ والشهوات والاستهتار بها لانصرافه عن جميع ذلك إلى صور هو بها آنس وإليها أَسكن إما أن يسمع بأذنه ويبصر بعينه في اليقظة على حسب ما قد ذكرنا من ذلك وكيفيته فيما تقدم وإمكانه.

وهذا ما يكون من أحوال الوحي لأن ذلك المعنى الفائض عليه من فوق ابتدأَ من قوَّته المميزة ، أعني: العقل، فأَثر ذلك فيه وبلغ من قوة أثر ذلك أن تأَدى من قوة إلى قوة حتى انتهى إلى أقصى قواه من أسفل وهي التي في أفق الحيوان، أعني: حس البصر والسمع، وأما بجهة ذلك وهو أن يسمع ولا يبصر فيصير كأَنه من وراء حجاب كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١] فإذا سمع ذلك الوحي وجد في قلبه له روعة ثم يتبعه سكون يقع معه اليقين، وفي كلتا الحالتين يؤمر بحمل الناس الذين هم أبناء جنسه على الطريقة المثلى التي تؤَديهم إلى الصراط المستقيم وتؤَدبهم بالآداب التي تجري من هوسهم مجرى الطب من الأبدان لتسلم نفوسهم من الجهل وعلمهم من الخطأ والضلال، ويقودهم إلى الشريعة التي شبهت بشريعة الماء ، أعني: الطريق إليه، فإن العرب تسمي الطريقة: شريعة.

فهو صلى الله عليه وسلم لذلك الأمر مطيع، يركب فيه كل صعب وذلول ويستهين بالموت وأنواع الشدائد ويحتمل ضروب الأذى والمكاره.

وهذا الإنسان من خاصته أن يكون له قوة عظيمة في الإقناع بالكلام وتأييد عظيم في قود كل إنسان إلى رأيه وصرف الخواطر إلى ما يورده على الأسماع بإقناعه وله

قدرة على ضرب الأمثال وإيراد تلك الحقائق التي هي مقررة عنده في معارض مختلفة، ثم إنه يختص بنيف وأربعين خصلة .

وأما المتنبي فهو بالضد منه؛ لأنه يلتمس الأمور التي زهد فيها ذلك ، وليس يخلو من ظهور ذلك عليه وافتضاحه به لأنه إياه يطلب وحوله يدندن، فإن كان ما يلتمسه مالاً أو كرامة أو رغبة في منكح أو مطعم أو غير ذلك أوشك أن يظهر عليه ولم يلبث أن يُعرف به وينتهك فيه، وإلى ذلك يؤول أمره، وإن مبادئ أموره ربما أُشكلت على الأغبياء لاسيما إن انضاف إلى ذلك سمت وإخبات وتزهد وإقلاق وفضل سماحة يتكلفها لقومه يستميلهم بها ومخاريق من شعبذة ونَارَنْجِيَّات[1] يستقل بها عقول أهل الغفلة إلى أن يُسأَل عن شيءٍ من الحقائق أو يبتدئ بالكلام فيما تتطلعه النفوس وتنتظر الوقوف عليه من جهة الأنبياء صلوات الله عليهم من أمر المبدأ والمعاد؛ فإنه حينئذ يضطر إلى أحد إمرين:

إما أن يعيد ألفاظًا محفوظة مسطورة في كتب الأنبياء عليهم السلام المُنزَّلة وأخبارهم المتداولة فلا يكون له فيها شرح ولا تفسير، وتلك إنما هي أمثال وتشبيهات موافقة للحقائق مطابقة لها وإن اختلطت ألفاظها وضروب الإشارات فيها.

وإما أن يتكلف الكلام فيها من نفسه فهو لا محالة يضطرب ولا يوافق بعضه بعضًا للتناقض والمحالات التي تلزم من جهل تلك المعاني اللطيفة التي إذا كانت من غير الله وجد فيها اختلافًا كثيرًا .

---

(١) هي كلمة تركية، وتعني: السحر بلا عزيمة ولا قسم أو فعل الأعاجيب بالحيل والمكر بما أودعه الله تعالي في الحيوان والنبات من أسرار وخواص خفيه يعلمها البعض من أهل الخواص.

ومن أعمال سحرة النارنجيات الغريبة التي تدهش العقول:

إذا أردت أن تري جماعه حضورعندك أن وجوههم وجوه كلاب كانوا يؤخذون وسخ أذن الكلب أو الكلاب ويعملوه فتيله أي شمعه في سراج جديد ثم يشعلوا السراج الذي فيه تلك الفتيلة فإن جميع الحضور يرون بعضهم البعض وجوههم وجوه كلاب وهو عمل مجرب جاء في مخطوطات عظماء السحر القديم، فأعمال النارنجيات معروفة ومشهورة تشمل علم المحاريق والتعفين والإيحاء وغيره.

انظر: كتاب كنوز الجواهر في المجربات البواهر للمتوكل بالله خالد الصايم الجوهرة (٦٠٤).

فهذا مبلغ ما يجب أن نتكلم فيه من هذه المسائل الثلاث ومن يجاوزه يجاوز الشرط الذي التزمناه من الاختصار والدلالة فيما يحتاج إلى بسط وشرح إلى أماكنه من كتاب "الفوز الأكبر" الذي نستأنف بعون الله عمله، وبالله التوفيق وله الحمد كما يستحقه بجميع نعمه على جميع خلقه وصلواته على النبي الهادي من الضلال والمجير من المكاره والأَوْجَال[1]، محمد سيد النبيين وأكرم المبعوثين. آمين آمين آمين.

(١) أَوْجَال : جمع وَجَل، والوَجَلُ : الخَوْفُ ، الفَزَعُ.